

القومية العربية وإسرائيل

بتقاسم
أنور الجمل

كان من نتيجة الاتفاقات الدولية التي عقدت بعد الحرب العالمية الأولى ، أن انفردت إنجلترا وفرنسا بمناطق النفوذ في العالم وفي الشرق الأوسط بالذات ، وتمثل هذا الانفرد في الانتداب الذي فرض على القطاع العربي . ولم يكن نظام الانتداب في الواقع إلا نوعاً من أنواع الاستعمار المقنع وصورة جديدة من صور الاستغلال تفتقت عنه أذهان المستعمرين .

وحرص ساسة الاستعمار على أن يوفقوا بين ما نادوا به طوال الحرب من حرص على حرية الشعوب وحقوقهم في تقرير مصيرهم وبين ما يهدفون إليه من صيانة لمصالحهم واستغلال لأرزاق الأمم الصغيرة وهو في الحقيقة يحفظ للدول المنتدبة - وهي نفسها الدول الاستعمارية الكبرى - نفوذها وسيطرتها ووضع يدها على أرزاق أهل المنطقة ، ومقدراتهم . وذهبت صيحاتهم طوال فترة الحرب عن الديمقراطية والحرية وصيانة السلام أدراج الرياح .

لذلك لم يكن غريباً أن استنكرت الشعوب العربية نظام الانتداب واعتبرته اعتداء على استقلالها وسيادتها . خاصة وأن الوعي القوي كان قد نما نمواً كبيراً في مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وغدت شعوبه تعارض بل لا تطيق أى نوع من أنواع الاستعمار سواء جاء هذا الاستعمار سافراً أو مقنعاً أو انتداباً .

واحتدام النزاع – بفضل هذا الوعي المطرد – بين شعوب المنطقة وبين قوى الاستعمار من أجل حريتهم وسيادتهم ، بحيث يمكن القول أن الفترة التي انقضت بين الحرب العالمية الأولى والثانية كانت فترة نضال مرير بين هاتين القوتين . ويستطيع الباحث أن يقسم هذه الفترة قسمين ، فقد اتسم كل قسم منهما بسمات معينة .

أما الأول ، فقد استقر فيه النفوذ الأجنبي بسبب استقرار السياسة الدولية ، اللهم إلا بعض التوتر الذي كان ينبعث بين الفينة والأخرى بسبب تأجيج الشعور القومي أحياناً وما كان يحدثه من قلق للدول الاستعمارية .

وأما الثانى : فقد ساد فيه الاستقرار بعض الشيء فى السنوات الأولى منه على أثر اهتمام دول الاستعمار بتسوية مشاكلها مع الدول المغلوبة على أمرها تحت يقظة شعوبها وإصرارها على استرداد حريتها ولكنه غص بمشاكل فى السنوات الأخيرة بسبب التوتر الدولى الأخير .

وقد تمثل هذا الاستقرار الذى تحدثنا عنه فى النصف الأول من هذه الفترة بتسوية بعض المشاكل بإبرام معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر

ومعاهدة سنة ١٩٢٠ مع العراق ومعاهدة سنة ١٩٢٨ مع شرق الأردن .
وبقيت مشكلة فلسطين معلقة بدون حل .

على أن تاريخ فلسطين الحديث قد ارتبط ارتباطاً خطيراً بوعد بلفور
بالوطن القومي لليهود . هذا الوعد الذي لم ترد به دول الاستعمار إلا سيطرة
كاملة على فلسطين وتخلصاً من نظام الانتداب فيها ، إذ رأيت فيه
بريطانيا حائلاً دون سيطرتها على الخط الأمامي لتأمين قناة السويس من
أى خطر يقع عليها من الشمال .

وقد كان كتشنر أول من أشار على دولته بأهمية فلسطين وخطورة
موقعها وذلك سنة ١٩١٤ الأمر الذي حدا به إلى أن يقترح على حكومته
ضم فلسطين إلى منطقة النفوذ البريطاني ، بحيث حرصت بريطانيا في
اتفاق (سكس - بيكو) السري على الأخذ بنصيحة رجل الإمبراطورية
العجوز وضمت فلسطين إلى منطقة نفوذها .

على ضوء هذه الأهمية لفلسطين بالنسبة للإمبراطورية البريطانية
المهارة - كما أدركها كتشنر - تتضح الأسباب التي حدثت بالاستعمار
إلى خلق إسرائيل في موضع القاب من أمتنا العربية .

وعند ما أيقن الاستعمار « بعد الحرب الأخيرة » أن حركة التحرير
في ازدياد مطرد وأن انتصارات الشعوب بثوراتها العارمة تكاد تجرفه في
طريقها ، وأن غضبات الشعوب تكاد تلاحقه في كل مكان . وعندما
أحس أن أساليب الاستعمار البالية العفنة بما فيها من قهر وقمع وتنكيل ،
وعسكرة في المدن ، واحتلال للمرافق ، وتدخل في شؤون الحكم لتنصيب

أعوانه وأذنا به حكاماً على الناس قد ولى زمانه وانقضى .

عند ذلك أيقن أن الأمر قد خرج من يده وأنه أصبح مكرهاً على الرحيل من الوطن العربي كله . فبدأ يفكر في الاحتفاظ باستغلاله واحتلاله فوضع خطة جديدة تهدف إلى الإبقاء على استعمارهم ، هذه الخطة الجديدة تقوم على نقطتين أساسيتين :

أولهما : خلق إسرائيل لاتخاذها أداة للضغط على الدول العربية لتنفيذ الأغراض الاستعمارية في المنطقة ، ولعرقلة تقدم شعوب المنطقة نحو التحرر الوطني ، ومن ثم القضاء على القومية العربية الوليدة .

والثانية : ربط الدول العربية بحلف أو ميثاق دفاعي مشترك ليستطيع الاستعمار السيطرة عليها مجتمعة في شتى نواحي حياتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

ولعل من سخرية القدر أن يكون هذان العاملان اللذان تفتقت عنهما قريحة دول الاستعمار للاحتفاظ بالمنطقة في دائرة نفوذها هما نفس العاملين اللذين أطاحا بما بقي لها من سيطرة واستغلال على مقدرات هذه البلاد .

فقد كان هذان العاملان من أهم الأسباب التي ساعدت على اشتعال القومية العربية ، وعلى تغذية الروح الوطنية في شعوب المنطقة . فتأييد بريطانيا لليهود خلق عداء مريراً لها في قلوب شعوب المنطقة بدأت تجنى عواقبه هذه الأيام . إذ ليس من شك في أن خيانة بريطانيا للعرب وتنكرها لحقوقهم ، وغدرها بهم ، ومحاربتها الدائبة لأمانهم الوطنية ، ومقاومتها

لقوميتهم النامية ، قد قضى قضاء تاماً على علاقاتها معهم ، وعجل بالقضاء على نفوذها ومصالحها في المنظمة العربية كلها ، وباتت هذه المصالح ، وهذا النفوذ يختصر حتى جاءت حملة القرصنة الأخيرة على مصر التي تزعمها إيدن فأطاحت بكل ما بقي لها من نفوذ وساطان .

فرغم العقبات التي قامت في الماضي للحيلولة دون انبعاث القومية العربية بسبب بقايا الانقطاع الذي كان قائماً ، وانعدام الزعامة التي تحمل روح الشعور بالمصلحة العامة ، وقلة الشعور بالمسئولية الجماعية بسبب عوامل القهر والقمع التي تتخذ ضد الرأي العام في كل مناسبة . نقول برغم كل هذه الحواجز والعقبات فقد كان خلق إسرائيل وتحالف الاستعمار معها ضد الشعوب العربية أكبر حافز لهذه القومية على الظهور والانطلاق .

لم يكن إذاً (وعد بلفور) ثمناً للجهود المبذولة فيها التي بذلتها اليهود في الولايات المتحدة لتدخل الحرب إلى جانب الحلفاء . فإن هذه الجهود لم تجذب إليها انتباه المؤرخين الذين تناولوا أسباب هذا التدخل .

كما أن المصالح الحقيقية للولايات المتحدة لم تكن خاضعة للصهيونية العالمية في ذلك الوقت بدليل ما كان من معارضة كثير من اليهود في إنجلترا وأمر يكا لفكرة الوطن القومي اليهودي قبل إعلان وعد بلفور خشية أن يفقدتهم ما لهم من امتيازات وحقوق ومصالح في البلاد التي يقيمون فيها .

كما لم يكن وعد بلفور أيضاً ثمناً لمساهمة اليهود في الحرب بأهوالهم

كما توارد في بعض المصادر التاريخية لسبب بسيط هو أن أكبر عدد منهم كانوا من اليهود المعارضين لفكرة الوطن القومي .

وإنما الذي حمل إنجلترا على إصدار وعد بالفور هو ما رسمته لنفسها من الانفراد بالسيطرة على فلسطين بإنشاء قاعدة استعمارية فيها لتحكم المنطقة العربية كلها من وراء هذه الدولة المصطنعة كما تضمن بريطانيا بقيام إسرائيل استمرار نفوذها في البلاد العربية بعد أن أحست بنمو الوعي القومي كما أسلفنا .

ثم إن في قيام الوطن القومي لليهود في فلسطين ما يشغل العرب عن قضاياهم الوطنية أو التفرغ لمشاكلهم الداخلية أو الخارجية .

لذلك يمكن القول أن هذه العوامل المتعلقة التي قيأت في إنشاء وطنهم القومي والتي عمل الصهيونيون على نشرها والترويج لها بين الناس لم تكن إلا من قبيل الدعاية لأنفسهم وتغطية موقف الدول الاستعمارية منهم والتحيز لهم بهذا الشكل المنضوح .

وتوالت قصة خلق إسرائيل بعد صدور وعد بالفور بتخلي بريطانيا عن انتدابها فجأة ودون سابق إنذار بعد أن اتفقت مع إسرائيل على احتلال مدن فلسطين ومساعدتها وتيسير سبل هذا الاحتلال برغم الاشتباكات الوهمية التي حدثت قبل ذلك بين القوات البريطانية المحتلة وبين العصابات الصهيونية . ثم توالت فصول هذه التمثيلية من مساعدة العصابات الصهيونية بمادها بالسلاح دون العرب ، وبذل الوعود الكاذبة للعرب لتضليلهم والزج بهم في حرب يعلمون مقدماً نتيجتها . والتدخل

لوقف الحرب بعد أن طرقت الجيوش العربية أبواب تل أبيب . ثم ما كان من أمر إيقاف الحرب مرة ثانية لمد إسرائيل بالسلاح . وقامت إسرائيل . ثم أعقب ذلك ألوان مختلفة من الضغط السياسي والاقتصادي والذي تمثل في صور شتى . فلا سلاح للعرب حتى لا ترجع كفتهم على كفة إسرائيل إلا إذا أرادوه مشروطاً بشروط أقل ما يقال فيها أنها احتكار واستغلال واستعمار ، ولا مساعدات اقتصادية للبلاد العربية ، بل حصار اقتصادي رهيب إلا إذا هادنوا الدولة الطاغية وعقدوا صلحاً معها .

كل هذا يتخذ ضد العرب ، وإسرائيل سادرة في عدوانها تحت سمع دول الاستعمار وبصرها والشكاوى تتلاحق كل وقت ضد إسرائيل ولا تجد ذماً سميحاً ولا مجيباً .

ثم إن الأسلحة تنهال على إسرائيل دون قيد أو شرط وتجمع الأموال لها في كل مناسبة وبغير حساب .

إلا أن الشعوب العربية لم تستسلم وهضت في بناء دفاعها العربي الخالص .

فعمدت الاتفاقات العربية الثنائية ، ووحدت القيادات العسكرية ضد عدوان إسرائيل وعمدت صفقات الأسلحة ، ووزقت الحصار الاقتصادي المضروب ، وأعدت النظر في جميع الاتفاقيات الاستعمارية السابقة ، كاتفاقيات مرور البترول في سوريا ولبنان والاتفاقات التجارية بصفة عامة .

وواصلت هذه السياسة زحفها فطرد جلوب وتحرر شعب الأردن

من الالتزامات التي كبلته بها بريطانيا .

وأحس العرب ألا سبيل أمامهم إلا أن يتكتلوا ويوحدوا جهودهم ليدرأوا هذا الخطر الاستعماري الذي يترصص بهم . ذلك الخطر الذي وضح تماماً في الحرب الفلسطينية الأخيرة وما أعقبها من مناورات استعمارية .

وغدا درعنا الواقى الوحيد أمام هذا الخطر هو اتحادنا وأدركنا أنه من السهل الاعتداء على بلد عربي منعزل لا يربطه بالآخرين أى رباط لأن العدوان على هذا البلد لن تتجاوب أصداؤه في المنطقة التي يعيش فيها . أما إذا كانت بلاد المنطقة ترتبط ارتباطاً قوياً فإن العدوان على أى منها لا بد وأن يؤثر على البلاد الأخرى .

وقد رأينا في العدوان الثلاثى الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي كيف أن صده قد تردد من الخليج الفارسي إلى المحيط الأطلسي واعتبر كل بلد عربي أن الاعتداء موجه إليه شخصياً . ذلك لأن العرب قد أدركوا أن مصر لم تكن هي المقصودة بالذات وإنما المقصود هو القضاء على القومية العربية النامية . لأن هذه القومية أصبحت خطراً يهدد المصالح الاستعمارية في المنطقة . وينذر بالقضاء التام على كل أثر من آثار النفوذ الأجنبي في جميع البلاد العربية .

وأحس المستعمرون أن مقومات هذه القومية قد اكتملت فأصبح لها أدب خاص ولها منهج واضح تمام الوضوح ووضح أنها تستهدف خلق أمة تجمع بين جميع العرب من أطراف الخليج الفارسي إلى شاطئ المحيط

الأطلسي . الأمر الذي أطلار صواب دول الاستعمار فأخذوا يضعون الخطط ويحيكون المؤامرات للقضاء على هذه الانتفاضة التي تهددهم فكان الاعتداء الأخير على مصر وما صاحبه من مؤامرات في سوريا . وفي هذه المرة لم يستطع الاستعمار أن يخفي نواياه أو يتذرع بالمداورة أو أن يلجأ إلى المحاورة بل إنه تحالف مع إسرائيل عدوة العرب صراحة وأعلن إيدن بكل وضوح في مجلس العموم البريطاني أن الاعتداء على مصر ليس هدفة قناة السويس فحسب بل إن هدفة الأكبر هو القضاء على القومية العربية التي يقودها الرئيس جمال عبد الناصر ويعمل على التمكين لها .

وكان صراعاً رهيباً بين القومية العربية وبين قوى الاستعمار امتحنت فيه القومية العربية امتحاناً مريراً ، وخرجت من هذا الامتحان مرفوعة الرأس وأثبتت للعالم أجمع أنها أصبحت حقيقة واقعة بفضل تضامن البلاد العربية كلها ووقوفها صفاً واحداً بجانب مصر .

وغدت القومية العربية قوة دوية جديدة لها وزنها بين الكتل المتصارعة حتى أن الإنجليز أنفسهم عند ما روعتهم نتائج مغامرة إيدن الحمقاء لم يستطيعوا إخفاء اعترافهم بأثر الوحدة العربية في القضاء على مصالحهم . وما بقي لهم من نفوذ في الشرق الأوسط كله . وسجوا على إيدن حماقته إذ عرضهم للارتطام بتلك القوة الكبرى النامية التي أثبتت الأحداث أنها أمنع من أن ينال منها غاصب أو معتد مهما تكن قوته . أما إسرائيل التي كانت تدعى أنها لا تطمع إلا في أن تعيش وصور

لها خيالها السقيم يوماً أنها تسخر قوى الاستعمار لصالحها . فقد أثبتت
 المؤامرة الأخيرة المكشوفة أن الصهيونية والاستعمار حليفان لا ينفترقان تجمع
 بينهما أساليب الغدر والحيانة . وأن إسرائيل قد أشهدت العالم أجمع على
 أنها هي أداة الاستعمار في المنطقة بما لا يدع مجالاً للشك .